بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الهالكين على منبر المفلسين.

الحمد لله الذي خلق الإنسان، علمه البيان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الديان، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، سيد ولد عدنان، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أمّا بعدُ:

أخزى خطبة.

الحديث اليوم عن خطبة عصماء، لكنها لن يُسمَع في التاريخِ أخزى منها، ولن يُقرَع سنٌ ولا ضرسٌ للندم - عند سماعها- كمثلها، هي خطبة الهالكين، على منبر المفلسين، هي موعظةٌ من خطيب، لكنها بعد فوات الأوان، وانتهاء الزمان، خطيبٌ أبلغ الخطبة، وأقام الحجة، لكنه بئس الخطيب، إنها خطبةٌ لا يتمنى التقي شهودَها، ويرجو فيها الجاحد أن يطرد خطيبها...

إنها خطبة الشيطان!

خطيب هذا المنبر: هو الشطيان الرجيم.

وجموعها الحاضرون: كل من صدَّقه وكذَّب المرسلين.

أما منبرها: فمصنوع من نار [١].

زمانها: يوم لا ينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

مكانها: عرصات يومِ القيامة [٢].

خبر هذه الخطبة من القرآن!

هذه الخطبة النكراء، والتي يستصرخ فيها التابعُ المتبوع، فيتبرأ فيها المتبوعُ من التابع، جاء خبرها في الكتاب والسنة.

أم الكتاب فدونك ما ذكره الله عنها في سورة إبراهيم حيث قال العليم الخبير: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن

---

(١) أخرجه ابن جرير (٦٣١/١٣). وعزاه السيوطي إلى ابن أبي حاتم.

(٢) وهنالك من قال: إن خطبته إذا أُدخل أهلُ الجنة الجنة، وأدخل أهل النار النار، وجاء في ذلك عدة آثار، ورجحه ابن كثير.

دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إبراهيم: ٢٢.

نَعَم. "خطيب السَّوْء الصادقُ إبليس، أفرأيتم صادِقًا لم ينفعه صِدْقُه"(١).

خطيبان يقومان يوم القيامة!

وهذه الخطبة التي ذكرها الله في كتابه هي خطبة الشيطان اليائسة، حين يجتمع عليه الناس باللوم واللائمة، وهنالك خطبة أخرى تكون يوم القيامة، يجتمع عليها النصارى خاصة دون غيرهم، لكن خطيبَها المتبرئَ منهم ليس الشيطان، بل هو من خير البشر، وأعجبِ الأعاجيب والخبر، خطيبَها هو النبي الحي في السماء عيسى ابنُ مريم، فعن عامر الشعبي قال: "خطيبانِ يقومان يوم القيامة: إبليسُ، وعيسى ابنُ مريم؛ فأمّا إبليسُ فيقومُ في حزبه، فيقول هذا القول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/٦٣٣). عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ ﴾ وأَمّا عيسى فيقول: ﴿ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ المائدة: ١١٧ - ١١٨ "[1].

خبر هذه الخطبة من السنة والآثار!

أما خبر هذه الخطبة الشيطانية من سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد قال عنها فيما روي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إذا جمع الله الأولين والآخرين، فقضى بينهم، ففرغ من القضاء، قال المؤمنون: قد قضى بيننا ربنا، فمن يشفع لنا؟ فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم- وذكر نوحًا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى- فيقول عيسى: أدلكم على النبي الأمي: فيأتوني، فيأذن الله لي إن أقوم إليه، فيثور من مجلسي من أطيب

(١) أخرجه ابن جرير (١٣/٦٢٩)، وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

ريح شمها أحد قط، حتى آتي ربي فيُشَفِّعُني، ويجعل لي نورًا من شعر رأسي إلى ضفر قدمي، ثم يقول الكافرون: قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فمن يشفع لنا؟ ما هو إلا إبليس هو الذي أضلنا، فيأتون إبليس فيقولون، قد وجد المؤمنون من يشفع لهم، فقم أنت فاشفع لنا، فإنك أنت أضللتنا، فيقوم فيثور من مجلسه من أنتن ريح شمها أحد قط، ثم يعظم نحيبُهم، ويقول: إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم"[1].

يقول الحسن البصري: " إذا كان يومُ القيامة قام إبليسُ خطيبًا على منبر مِن نار، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ "[2].

مطايا الشيطان!

وإن من أشد جمل الخطيب اليائس، وأكثرِ مقالاته

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص:١١٧)، والطبراني في المعجم الكبير (١٧/٣٢٠)، وذكره ابن كثير في التفسير (٤/٤٩٠).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٣/٦٣١). وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

إحباطًا وأسفًا أنْ قال للناس حوله: "وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي "[1]، يقول: لم أكرهكم على فعل المعاصي، ولم أَقُدْكم بسوط إلى الفسوق، ولم أقهركم على التمادي والغطرسة، إلا أن زَيَّنتُ لكم المخازي، فاستجبتم لي وأقبلتم على طاعتي، وتركتم طاعة ربكم.

إنه لَعِب الشيطان على لإنسان في الدنيا، إذا تمكن من رقبته فوجهها إلى المهالك حيث يشاء، قال عبد الله ابن مسعود: "إنّ مِن الناس مَن يُذَلِّلُه الشيطانُ كما يُذَلِّلُ أحدُكم قَعُودَه مِن الإبل"[2].

يوم اللائمة الكبرى!

وأعظم فائدة من نقل خطبة الشيطان المخزية، والتي

---

(١) السلطان الذي نفاه هو سلطان الحجة والدليل، أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ النحل: ١٠٠، فالسلطان المثبت هنا هو سلطان الإغراء والإغواء. انظر: تفسير السعدي في الآية.

(٢) عزاه السيوطي إلى ابن أبي شيبة، وابن المنذر.

يعقبها الحسرات والآهات، أن نثير في أنفسنا بغضَ الشيطان، وأن نجعله من أَلَدِّ أعدائنا الخصمين، وأن نذكر هذه الخطبة الكريهة كلما قرأنا: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ فاطر: ٦، خصوصًا وأن هذه الخطبةَ المستفزة مليئةٌ بإضمار الشيطان الشرَّ، وفي ثناياها إظهارُ ما كان يكيده به على جماهيره، كما أنها خطبةُ سُخريةٍ بحاضريها الذين صدقوه واتبعوه بلا تفكير وتعقل أو رَويَّة؛ ولذا وقعت هذه الخطبة على أسماعهم موقعَ الحسرة، وندامةَ الكُسعِي، مع زيادة العذاب في نفوسهم؛ ولأجل هذا عندما جاء أتباع الشيطان إليه ولاموه ملامةً عظيمة قال لهم وبكل تبجح: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ ﴾.

استصراخ لا يجدي!

ثم هو بعد أن اتخذ الناسَ مطايا، وركب على رؤوسهم، يقول لهم جالبًا لهم أعظم القنوط: ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ أي: مأنتم بمُغِيثِيَّ، وما أنا

بمُغِيثكم، وما أنتم بناصري، وما أنا بناصركم.

ثم تنصل من جرمه، وتبرأ من إغوائه للناس أشد تبرأ، بل اتهمهم بأنهم هم الذين أشركوا لما أطاعوه فقال: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾[1]، فمَن أطاع الشيطان في دينه فقد أشرك به، ومن اتبع الشيطان في عملِه فقد عبد الشيطان، ألم تر أنّ الله قال: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ يس: فكان سببًا لكل شر وقع في العالم.

إبليس عارفًا بالله كافرًا بطاعته!

إبليس الذي عبد الله دهورًا، ورأى الملائكة عيانًا، وشاهد ملكوت الله حضورًا وقربًا، سقط في لحظةٍ واحدة...هي لحظة كبرياء.

لما أمر الله ملائكته أن يسجدوا لآدم، سجدوا جميعًا طائعين، إلا إبليس أبى واستكبر، وقال متحديًا: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ

---

(١) وقيل في معنى قوله هذا أي: إني جحدت أن أكون شريكًا لله، قال به ابن جرير، ورجحه ابن كثير، والقول الأول منسوب لقتادة.

مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ الأعراف: ١٢

فلم يطعه قلبُه، ولم ينكسر كبرياؤه، ولم يذعن لأمر الله، فإبليس ما كان جاهلًا بربه، بل أقسم بعزّة الله: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ص: ٨٢، لكنه كان عارفًا بوجوده، مكابرًا على أمره، رافضًا لتوبته.

وتأمل الفرق بين إبليس المخلوق من نار، وآدم المخلوق من طين، فآدم لما أخطأ اعترف وقال: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ الأعراف: ٢٣ فانفتح له باب الرحمة.

وإبليس لما أذنب قال: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ الحجر: ٣٩، أي: رب بسبب أنك أغويتني، ولم يقل: رب تب عليَّ، فانغلق عنه باب التوبة.

فجعل الله إبليس باقيًا إلى يوم يبعثون، وجعل له قوة شريرة، ومسخ الله نفسه فجعلها نفسًا خبيثة لا تريد التوبة، وجعله أصلّ كلِّ فساد وعناد، حتى أصبح الشر في نفسه يصدر منه كصدور النهش من الحية، وكتحرك الأجفان عند مرور شيء على العين، وإن كان صاحب العين لا

يريد تحريكها [1].

فالعبرة ليست بالعلم وحده، فإبليس رأى الجنة وأبصر الملائكة، ولكن العبرة بالخضوع والانكسار، فالشيطان عنده علم بالله، لكنه كَفَرَ كُفرَ استكبار وإباء.

ولو شاء الله لتاب إبليس كما تاب آدم، لكن حكمته اقتضت أن يبقى في غيّه، ليكون فتنةً وامتحانًا، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الأنفال: ٣٧

فالحذرَ الحذرَ من طريق إبليس! فإن التشبه به كِبرٌ وعِناد، ولنكن منكسري القلوب خاضعين لله، فإن الله لا يرضى من عبدٍ استكبارًا، ولا يردّ عبدًا أقبل عليه منكسرًا.

وُكتب في ٨ / ٣ / ١٤٤٧

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد

---

(١) انظر: تفسير ابن عاشور (٨/٤٦).